د. محمد شوقي الزين

الحِجَاجُ الفَلْسَفي

الحصة الرابعة

أقسام الخطابة

مُخطَّط عَام

- المرجع الالكتروني: http://revoltedulangage.canalblog.com/archives/2016/03/15/33519563.html (بتاريخ: 2021-02-02)

مُثلَّثُ الخِطَابَة

- إذا استرجعنا الدلالات الثلاث المدروسة في الحصة السابقة (أفلاطون، كانتيليان، أرسطو)، نجد ما يلي:
- **1.** تُركِّز **الدلالة الأفلاطونية** على المُتلقّي صاحب الانفعالات وكيفية التلاعب بمشاعره واستثمار اقتصاده العاطفي؛
- **2.** تُركِّز **دلالة كانتيليان** على المخاطِب في كيفية حُسن نطق الكلمات والتَّعبير عنها بجودةٍ تنمُّ عن الفكرة السَّامية المراد إيصالها؛
- **3.** تُركِّز **الدلالة الأرسطية** على الوساطة بين المخاطب والمتلقّي وهي اللغة بالنَّظر في تركيبة الخطاب والأشكال التي يتَّخذها في سياق التَّعبير بين الحقيقي والمجازي، بين الظاهر والمبطَّن، إلخ.
- يبدو أن الدلالات المتعارضة أسهمت في تطوير الخطابة دون وعيٍ منها، وإن كانت الدلالة الأفلاطونية مالت بالأولى نحو الحط من شأنها. لأن، في حقيقة الأمر، لا يمكن عزل أيَّ حدٍّ من الحدود الثلاثة المشكِّلة لكل نظرية في الخطابة والتواصل وهي المخاطِب والمتلقّي وسياق الوساطة.

الطَّبْعُ، التَأثُّر، القَوْل

- إذا قدَّمنا الحدود الثلاثة في منظومة مفهومية أساسية، نقول بأن الخطاب هو مسألة طبع وتأثُّر وقول، أو ثلاثية: **«إيثُوسْ»**، **«بَاثُوسْ»**، **«لُوغُوسْ»**. يُعدُّ أرسطو أحسن من نسَّق هذه الثلاثية في «فنِّ الخِطَابَة» وتستدعي إذاً وقفة مطوَّلة.

- **1.** أوَّل ما ينبري من فكرة أرسطو حول الخطابة أنها «مُفِيدَة» وهي مشتركة بين الناس لأن مجالها هو الاحتمالات والتصديقات؛

- **2.** ثاني مسألة في الخطابة ليس الإقناع بكل الوسائل، بل الطرق المؤدِّية للإقناع مع ترك فسحة من الحرية (القبول أو الرفض) لدى المتلقّي: «فَمِنَ الوَاضِحِ إذَنْ، يَقُول أرسْطُو، أنَّ الخِطَابَةَ لَا تَتَنَاوَلُ صِنْفاً مُحَدَّداً مِنَ المَوْضُوعَات، بَلْ هِيَ مِثْل الجَدَل، عَامَّة وَأنَّهَا مُفِيدَة وَأنَّ مُهِمَّتَهَا لَيْسَتِ الإقْنَاع بقَدْر مَا هِيَ البَحْثُ في كُلِّ حَالَةٍ عَنِ الوَسَائِلِ المَوْجُودَةِ للإقْنَاعِ» (أرسطو، **فن الخطابة**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص28.). من ثمَّ فإن حدَّ الخطابة مرهونٌ بتحديد أن مجالها هو البحث عن الوسائل المؤدِّية إلى الإقناع وليس الإقناع هو الغاية القصوى: «يُمْكِنُ أنْ نَحُدَّ الخِطَابَة بأنَّهَا الكَشْفُ عَنِ الطُّرُقِ المُمْكِنَةِ للإقْنَاع في أيِّ مَوْضُوعٍ كَانْ»؛

فنُّ الخِطَابَة

- **3.** ثالث مسألة هي أن الخطابة عبارة عن «فَنٍّ» (technè)، بمعنى صناعة أو تقنية نطاقها الاحتمالات والتصديقات، وليست «عِلْماً» (épistèmè) ينتهي بالبديهيات. يقتضي الفنُّ إذاً مجموعة من الوسائل التي تجعل الصناعة ممكنة ومُثلى تدَّعي الحق أو الصدق، دون أن تدَّعيَ الحقيقة النهائية.

- يمكن لهذه الصناعة أن تكون «مَوْرُوثَة» ككل صناعة مثل الشهادات الماضية (témoignages) المتداولة شفهياً أو كتابياً، ويمكنها أن تكون «آنِيَّة»، حصيلة الممارسة والحيلة.

- أما وقد حدَّد أرسطو الخطابة، فهو يضعها في ثلاثية أساسية تخصُّ القَوْل والطَّبْع والتأثُّر: «وَالتَّصْدِيقَات الَّتي يُقَدِّمُهَا القَوْلُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ: الأوَّل يَتَوَقَّفُ عَلَى أَخْلَاقِ القَائِل، وَالثَّاني عَلَى تَصْيِير السَّامِع في حَالَة (نَفْسِهِ) مَا، وَالثَّالِث عَلَى القَوْل نَفْسِهِ، مِنْ حَيْثُ هُوَ يُثْبِتُ أَوْ يَبْدُو أَنَّهُ يُثْبِتُ» (المرجع نفسه، ص29).

الطَّبع (Éthos)

- أعطى الطَّبع كلمة éthique أي الخُلُق أو الاستعداد الفردي، في تميُّز أساس عن morale أو الأخلاق التي لها مدلول جمعي وإكراهي (ما يجب فعله أو الامتناع عنه). يخصُّ الطبع العادة أو الاعتياد والحالة أو نمط الوجود (manière d'être).
- ومن ثمَّ فإن الطبَّع في الخطابة يخصُّ «الانْطِبَاعُ الأَخْلَاقِي الَّذِي يُنْتِجُهُ الخَطِيبُ (عَلَى المُتَلَقِّي)»، أو بتعبير أرسطو: «وَالخَطِيبُ يُقْنِعُ بالأَخْلَاق إِذَا كَانَ كَلَامُهُ يُلْقَى عَلَى نَحْوٍ يَجْعَلُهُ خَلِيقاً بالثِّقَة».
- كل ما يتعلَّق بصورة الذات لدى الآخر وبالشخصية (القويَّة) للخطيب، يُحشَرُ إذاً في الطَّبع. لأن الغرض هو حمل الآخر على الانخراط في رأي الخطيب إذا توفَّرت لديه شروطاً معلومة مثل حُسن الكلام والثقة والثقافة وحُسن الجدال والإقناع حول قضايا تطرح مشكلات خاصَّة لدى الآخر أو تثير اهتمامه.
- الطبع هو نوعٌ من الامتياز (excellence) الذي يهب للخطيب هيبةً في عيون الجمهور هي «السِّيادة» (autorité) المخوَّلة له: «الطَّبْعُ هُوَ الخَطِيبُ بوَصْفِهِ مَبْدَأ السِّيَادَة (بَلْ وَحُجَّتَهُ)».

التأثُّر (Pathos)

- يخصُّ المُتلقّي في أوسع معاني هذه الكلمة، سوء أكان فرداً أم جمهوراً، مشاهداً أم مستمعاً أم قارئاً؛ المتلقّي الذي يتأثَّر بخطابٍ ما يتوجَّه إلى انفعالاته بنيَّة التأثير على أفعاله أو قراراته وأحياناً توجيهها.
- ويبدأ الانفعال «بالتَّعْبِير الذَّاتي لسُؤَالٍ يُرَى إِلَيْهِ مِنْ زَاوِيَة اللَذَّة وَالألَم. بِصَفَتِهِ جَوَاباً، فإِنَّ الانْفِعَال يَمْحُو هَذَا السُّؤَال بتَحْوِيلِهِ إِلَى نَبْرَةٍ خَاصَّةٍ، نَبْرَة ذَاتِيَّة» (MEYER, *La rhétorique*, p. 28.).
- الانفعال هو خطابة من حيث أنه يختزل الأسئلة في الأجوبة، أي على أنها أسئلة تمَّ حلُّها. على العكس من الخطابة، يقوم الحجاج بإبراز الأسئلة التي تستدعي العقل بدلاً من الانفعال.

القول (Logos)

- تجمع الكلمة «لُوغُوس» في الوقت نفسه التعبير (اللفظة) والتفكير (الفكرة). ومن ثمَّة فإنَّ مجالها هو الجدل أو الديالكتيك منذ أفلاطون، ونطاقها هو القضايا (propositions) المدروسة والمتداولة منطقياً التي تبتغي الحقيقة واليقين، أي تضع «الجواب» في مرتبة أعلى من «السُّؤال»، على ما يذهب ميشال ماير.
- يعتمد القول على سلسلة من الاستدلالات العقلية (استنباطية أو استقرائية) بمعزلٍ عن طبع المخاطِب أو تأثُّر الجمهور، ممَّا يُقرِّبه أكثر من الخطاب العلمي ويُبعده أكثر من الخطاب اليومي الذي يغلب عليه الطَّبع والانفعال.
- غير أن الثلاثية لا تشتغل بمعزلٍ عن بعضها البعض، بحكم أن الخطاب العلمي الذي يشتغل في مجال القول يمكنه أن يكون موضوع بحثٍ سوسيولوجي حول «اجتماعية المعرفة العلمية» مثلما قام بها برونو لاتور، ديفيد بلور وبيير بورديو من أجل تبيان أن الممارسات الخطابية لدى المجتمع العلمي يخترقها كذلك الطبع والتأثُّر، لأنها مبنية على أساس اللغة العادية-الطبيعية، في اختلافٍ أساس عن اللغة الاصطناعية-التقنية-الرمزية من معادلات وحسابات وجداول.